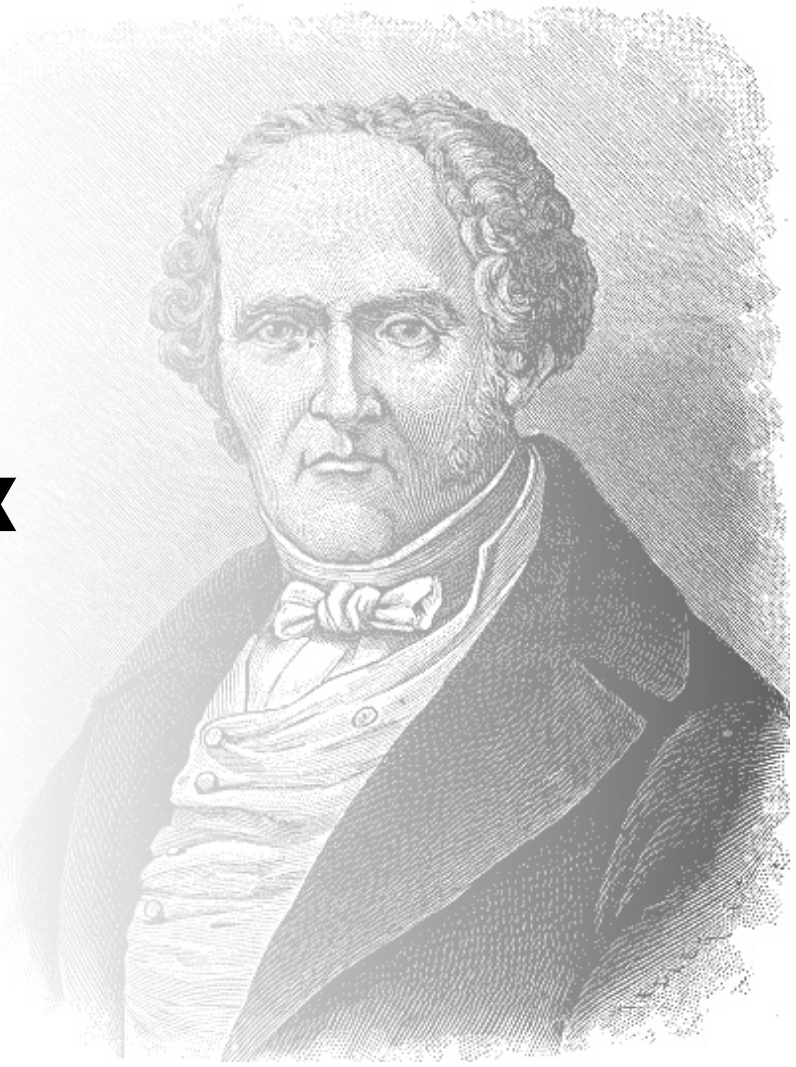

ملامح من الفكر السياسي
عند فولتير

عارف عادل مرشد*

شغل «فولتير (1694-1778)» (Voltaire واسمه الحقيقي «فرانسوا ماري أروي ــ Fracn-cois Marie A route » مكانة خاصة في حياة فرنسا الفكرية في القرن الثامن عشر. وقد خلّد تاريخ الثقافة اسمه كاتباً كبيراً وفيلسوفاً للحضارة والتاريخ (1) فقال عنه الشاعر الفرنسي الكبير « فيكتور هيغو» (-1802 1885) : «إذا ذكرنا اسم فولتير فكأننا حددنا مواصفات القرن الثامن عشر كله، ووعينا بكلمة واحدة السمات التاريخية والأدبية المزدوجة لذلك العصر الذي كان، مهما قيل فيه، عصر انتقال للمجتمع كما للشعر».(2)

ولد في عهد لويس الرابع عشر في اسرة فرنسية تنتمي الى الطبقة البرجوازية وتعمل في التجارة وبيع الأقمشة .تلقى علومه في معهد يشرف عليه الآباء اليسوعيون وقد أهله ذكاؤه وعلمه ومكانة أسرته لاكتساب شهرة واسعة وسط المجتمع الأرستقراطي وجعله ذلك يعتمد في آرائه وتفكيره على أساس من أرستقراطية الفكر. نُفي الى انجلترا عام 1726 اثر خلاف بينه وبين أحد النبلاء حيث بقي فيها قرابة ثلاث سنوات اُستقبل خلالها بحفاوة في البلاط الملكي وفي الأوساط الأدبية والتجارية .(3)

وكانت حياة فولتير كلها تناقضات، فهو يزدري بني الإنسان، لكنه شديد الإهتمام بأفراد هذا الجنس، وهو يهزأ برجال الكنيسة ، لكنه يهدي أحد كتبه إلى البابا، وهو يسخر بالملكية لكنه يقبل معاشاً من ملك بروسيا «فريدريك الأكبر» (1712 – 1786) ، وهو يمقت التعصب، لكنه تعصب في عدائه لليهود، وهو يتهكم على باطل الثروة،وعدم غنائها، لكنه يجمع ثروة طائلة بأساليب ليست شريفة دائماً.(4) وكانت حكومة جنيف منعت «فولتير» من تمثيل مسرحياته ومن إنشاء مسرح فيها، وأيد المفكر الكبير «جان جاك روسو « (-1712 1778) موقف الحكومة السويسرية، فتسبب هذا في قطع الصداقة بين هذين المفكرين الكبيرين، وحدث ذلك في عام (1758) .

ولا يُعتبر «فولتير» فيلسوفاً سياسياً، فلم يكتب كتابة نظرية علمية ولم يعالج نظريات فلسفية يمكن دراستها كوحدة، أي أننا لا نستطيع أن نكون من أفكاره أو نزعاته السياسية وحدة منهجية أو مذهب متسق، ولكننا نعثر في ثنايا بحوثه على عبارات ونصوص تشهد بميوله

* جامعة الزرقاء– الأردن

السياسية ونزعاته الإصلاحية. كما أن «فولتير» لم يكن فيلسوفاً أصيلاً في ما عالجه من بحوث، بل كان تلميذاً لكثير من الأساتذة السابقين عليه، بيد أنه كان تلميذاً مستقلاً أقوى من أساتذته من بعض الوجوه. فصحيح أن «فولتير» لم يبدع آراء فلسفية جديدة،ولكنه أسهم بقسط كبير في إشاعة التنوير الفلسفي بالمجتمع الفرنسي . كما كان له فضل كبير هو» وجان جاك روسو» في الانتقال السياسي والاقتصادي الكبير من حكم النظام الارستقراطي الإقطاعي إلى حكم الطبقة المتوسطة . حتى أن «لويس السادس عشر» (1774 ــ 1793) قال في سجنه بعد أن رأى نتيجة أعمال «فولتير» «وروسو»: « لقد دمر هذان الرجلان فرنسا »، ويعني بذلك تدميره وتدمير النظام الملكي في فرنسا.(5)

ويتفق مؤرخو الفكر على موضعة القطيعة الإبستمولوجية الكبرى في منتصف القرن الثامن عشر: أي في الوقت الذي ظهرت فيه مؤلفاته الأساسية بالإضافة إلى مؤلفات روسو وديدرو وجماعة الموسوعيين. عندئذ حصل الانقلاب الحقيقي وانتقلت البشرية الأوروبية من عقلية القرون الوسطى الكهنوتية الإقطاعية، إلى عقلية العصور الحديثة العلمانية الديمقراطية. فقد كان الرأس المدبّر لحزب الفلاسفة أو لحزب التنوير. وكان يعتقد أن التنوير سوف يصعد رويداً رويداً حتى يشمل كل الظواهر، وكل القضايا، وكل العقول. عندئذ تخرج البشرية من المرحلة الطائفية الهمجية، لكي تدخل في المرحلة الحضارية العقلانية. وعندئذ يتم القضاء على التعصب الديني الذي يشبه الأخطبوط الأفعواني والذي كان يشكل عدوه الأول. ومعلوم ان هذا التعصب كان سبب المجازر والحروب الاهلية المدمرة التي جرت بين المذاهب المسيحية آنذاك. ليس غريباً، والحالة هذه، أن يكون نيتشه – المعروف بصعوبة مزاجه- قد أهداه كتابه المعروف «فيما وراء الخير والشر» قائلاً: إلى فولتير، أحد كبار محرِّري الروح البشرية.(6)

نظرته إلى الملكية والمساواة :

يُقر»فولتير» أن الطبيعة الإنسانية واحدة في كل زمان وفي كل مكان، ولكنه يُقر مع ذلك أن الناس يختلفون في مقدرتهم الذاتية وفي رغباتهم، وكفاياتهم الشخصية، ومن هنا ضرورة قيام نظام الطبقات الاجتماعية، فهو ليس ضد هذا النظام وإنما يراه من مستلزمات الحياة في المجتمع الإنساني، وهو لا يتصور قيام مجتمع تنعدم فيه الطبقات أو تسود فيه طبقة واحدة كما يزعم لشيوعيون. ففي كل مجتمع لابد من قيام الأغنياء من جهة والفقراء من جهة أخرى، ولكن قيام هذه الطبقات ليس معناه ظلم الأغنياء للفقراء وأن يفرضوا عليهم الذل والحرمان والعوز وإنما يجب أن يكون هناك عدالة اجتماعية وإنصاف جمعي فيما بينهم فلا تطغى طبقة على أخرى. ومن هذا يتضح أن «فولتير» يقول بحق الملكية الفردية ، لأن وجود أفراد كثرين لا يمتلكون شيئاً يسهل توزيع الأعمال وتقسيمها فيما بينهم، وبغير هذا سيصعب إيجاد من يؤدي بعض الأعمال الضرورية. ومع أن «فولتير» يؤيد حق المُلكية الفردية إلا أنه لا يقر أن يكون هذا الحق انحرافاً ووسيلة مرذولة للطغيان من جهة الأغنياء والحرمان من جهة الفقراء، ولهذا ينادي بإصلاح هذا الحق ومراقبته دائماً حتى لا يخرج عن حدوده المشروعة المعقولة ويكون سبباً للمشاحنات الاجتماعية وعدم الاستقرار الاجتماعي. فحق المُلكية ضرورة اجتماعية تتعلق بشرف الإنسان عند فولتير.(7)

إن «فولتير» لا يتخطى حدود المجتمع البرجوازي عندما يتكلم عن المساواة فهو يقول : «من المستحيل في عالمنا التعيس ألا ينقسم البشر الذين يعيشون في مجتمع إلى طبقتين، طبقة أغنياء وطبقة فقراء يخدمون». وهذا الانقسام ينجم، في منظور «فولتير» عن طبيعة الأمور، فهو يقول : «لو كانت هذه الأرض كما كان ينبغي أن تكون، لو كان الإنسان يجد في كل مكان فيها قوتاً مؤمناً وسهل المنال... لاستحال طبعاً على أي إنسان أن يستعبد آخر». لكن «فولتير» الذي ينكر إمكانية تحقيق المساواة في الأملاك والثروات، يدين بشدة مع ذلك اللامساواة الإجتماعية في ظل النظام الإقطاعي، وامتيازات النبلاء .

آراؤه في نشأة الدولة :

اختلف «فولتير» مع القائلين بنظرية العقد الإجتماعي كأساس لنشوء الدولة، ويرى أن الدولة بشكلها البدائي لم تقم إلا نتيجة لإتحاد الأسر بعضها.(8) فهو يميل إلى الإعتقاد بأن الجمهورية، المنبثقة عن اتحاد الأسر، هي الشكل البدائي للدولة، فتلك هي في نظرة مسيرة التطور الطبيعي.

وهو يقول : «أنه ليس من قبيل المصادفة أن كل الأوروبين الذين قصدوا أمريكا لم يجدوا فيها، حيثما اتجهوا تقريباً، سوى الجمهوريات». وكذلك الأمر في أفريقيا، وفي العالم القديم.

ما كان «فولتير» يتبنى إذن نظرية العقد الاجتماعي كنظرية لظهور الدولة، فقد ولدت الدولة، تاريخياً، من الإكراه، لا من التعاقد. لكن خلافاً للحق التاريخي، فإن الحق الفعلي الحقيقي، لايمكن أن يقوم الإ على أساس الارتضاء الحر.

الحكم الأفضل عند فولتير:

كان يرى أن مكان السلطة في أيدي من هو مؤهل لقيادة المجتمع نحو السعادة،وهذه الأيدي ما هي إلا أيدي الملك،لأنه هو الوحيد الذي يملك القوة ليصل بالدولة إلى الهدف المطلوب .

لقد كانت ثقته تتجه أكثر فأكثر نحو نظام قوي، معتبراً أن عهود الملك «هنري الرابع» و «لويس الخامس عشر» الذين حكموا بأنفسهم كانت من أسعد سنوات الملكية، وكان يتأفف من الدور الذي كانت تحاول أن تؤديه البرلمانات في فرنسا، ويصفها بأنها «نوع من المحاكم».

وقد حاول أن يعطي انطباعاً حسناً عن النظام الملكي المستنير، شأنه شأن مفكري الطبقة البرجوازية في عصره، معتبراً أنه النظام الوحيد القادر على انتشال فرنسا من حالة الفاسد، والتردي عبر الإصلاحات التي بإمكانه القيام بها، فالنظام الملكي المستنير له فضائله التاريخية الناجمة عن صراعه مع فوضى النظام الإقطاعي، أما النظام الديموقراطي فلم ير فيه سوى أنه مجرد سلطة عددية.فهولم يخف إعجابه بالنظام الملكي التمثيلي والمحدود في إنجلترا والذي يضمن الحريات السياسية والمدنية التي كانت غير مضمونة في فرنسا ، بل لقد عمل على الترويج لها وكافح لتحقيقها.(9)

فقد قام فولتير أثناء نفيه إلى بريطانيا، بدراسة الدستور البريطانى، الذى يكفل الحرية والتسامح لكل الطبقات. ودرس بعمق مسرح شكسبير وفلسفة «لوك» ونظريات «نيوتن» العلمية. وتأثر تأثرا كبيرا بكتاب «الفهم الإنسانى» «لجون لوك»، ومعقولية «فرانسيس بيكون»، وأفكار الإصلاح «لتيندال».

لقد حلق فولتيرفى عالم آخر من القيم الرفيعة الراقية. وهنا أصبح الشاعر، مؤرخا وفيلسوفا. بعد أن إتسع أفقه. ومعه، إتسع أفق القارة الأوروبية كلها. وقال عنه «جورج برانديس»: «أعطته إنجلترا نقطة إرتكاز أرشميدس خارج فرنسا، ومنها استطاع أن يرفع فرنسا ومعها القارة كلها»

وكان أهم شيء هو إحساسه بالحرية فى بلد حر ديموقراطى. الحرية الإنجليزية أصبحت بالنسبة له مثلا أعلى. هنا، لا أحد يمكن أن يفقد حريته بأي سلطة من السلطات. ولا أحد يمكن أن يعاقب بدون محاكمة. هنا حرية كاملة للكتابة والخطابة والصحافة. وتسامح دينى كامل بين الأديان المختلفة. لقد رأى الآن الفرق بين نظامين. بدا واضحا فى كتابه «رسائل عن إنجلترا» التى تعتبر نقطة انطلاق، وبداية الثورة الفرنسية.

فقد كتب، عن الحرية الدينية عند الإنجليز، أن الرجل الإنجليزى، يذهب إلى الجنة عن طريق الدرب الذى يختاره هو بمحض حريته. وبالنسبة للحرية السياسية، يقول أن إنجلترا هى البلد الوحيد على سطح الكرة الأرضية الذى تحجم سلطة الملوك فيه. فالحاكم تترك له كل السلطة لفعل الخير، وفى نفس الوقت تكبل يديه عن فعل الشر(10).

هذه هي الأفكار العامة التي مهد بها «فولتير» لقيام الثورة الفرنسية عام (1798)، فقد نفذ بقوة إلى قلوب معاصريه بفضل حملاته البليغة ضد النظم القائمة، مطالباً بالإصلاح وداعياً بفضل حملاته البليغة ضد النظم القائمة، مطالباً بالإصلاح وداعياً إلى الهدم والتدمير، ولم يحاول أن يضع خطة إنشائية إيجابية، فكان يدعو إلى التفويض من الأساس لأنه كان يمقت الحاضر، بيد أنه لم يفكر فيما ينبغي له أن يكون عليه المستقبل. وبالرغم من الدور الهام الذي لعبه «فولتير» في التمهيد للثورة الفرنسية فقد كان «روسو» هو فيلسوفها الأول بلا شك (2) . وكان كتابه «العقد الاجتماعي»، هو إنجيلها ودستورها.

الـــهـــــوامش

(1) مؤجز تاريخ الفلسفة، ترجمة:د.توفيق سلوم،ط1،بيروت:دار الفارابي،1989،ص 197
(2) جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة،ط1،بيروت:دار الطليعة،1987،ص 438
(3) د.أحمد محمد الأصبحي،قراءة في تطور الفكر السياسي،ج3، ط1،بيروت:مؤسسة الرسالة،عمان:دارالبشير،2000،ص1285
(4) د.مصطفى الخشاب،تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية،ط1،القاهرة:لجنة البيان العربي،1953،ص 431
(5) مؤجز تاريخ الفلسفة،مرجع سابق،ص 198
(6) هاشم صالح،"فولتير : زعيم الأنوار الأوروبية"، صحيفة الشرق الأوسط،،6/2/2008
(7) د.عبد العزيز عزت،فلسفة التاريخ وعلم الاجتماعين،القاهرة:د.ن،1951،ص ص 115-114
(8) هنري توماس،ودانلي توماس، المفكرون من سقراط الى سارتر،ترجمة :عثمان نويه، القاهرة:مكتبة الأنجلو المصرية،1970،ص ص 235-231
(9) د.مصطفى الخشاب،مرجع سابق،ص 433
(10) محمد زكريا توفيق،"فولتير رائد من رواد فلسفة التنوير في القرن الثامن عشر".